الجـــارم البرىء

للأستاذ حبيب الزحلاوى

توهمت أنى الشرقي المتأمرك الوحيد بين ركب الباخرة التي بعث بهـا الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأمريكيين إلى ولاياتهم المتحدة قبـل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتها . توهمت ذلك ، لأنى لم أرَ ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحـد من ركاب هـذه الباخرة التي ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت بالنظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولـما اختلطت الرؤى ، وصرت لا أميّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخـالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأمريكيين .

إن الروح الجماعية أصيلة في خلق الأمريكان، تستميلهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور ، وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضا ، وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا، إلى معرفة طوية رجل متأمرك آخر سـواى، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، سيدة كانت أم رجلا . وقد استمان هؤلاء الطلعات بى، وكانت رغبتهم فى معرفة أزوار مواطنى الشرقي تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لحاجة من حبه الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً ، لأن الحزن يجلل نفسه بوشاح من اليأس ! ! وقالت سيدة فقدت حيلتهـا فى مغالطة نفسها فتركت نفسها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بنـاء القصر الذى بناه فى قريته فتركه يعشش فيه الخفافيش والبوم وعاد إلى أمريكا يجمع الدولارات ليتم بناءه » ولـكمنى فى بطنى « وهو يضحك » لـكنة لولا تعود بطون الأمريكان تحملها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمد الرصانة : « الجنسية الأمريكية للبنانيين حصانة تقى أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » ، فقالت الفتاة الصبية مخاطبة هذا المعترض ، كنت دائما يا عمي العزيز تكبر فى اللبنانيين مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة رغم تحاملك عليهم . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هـذا بحث فى خصال قوى سأحاسبكم عليه فى ظرف مناسب ، أما الآن وغايتكم معرفة صدوف مواطنى عنكم ، فأنى أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : « إذا انطلق لسانى المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعيا انتقلت إليه » لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هـذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء ، وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم فقال لى :

أتعرف حى البرازيل فى زحلة ؟

قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القـائمة على ضفاف البردونى !

قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حى يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى .

قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الـكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا نيـل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بأخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً فى الحى البرازيلى الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة فى الرحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن يأذن لى بالسفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتنى آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالى ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وانظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبي . لم تكن الفتاة غريبة عنى ، بل كانت من أقاربى الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصا لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها ، وأنها هي هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة ، فوثبت على غير وعى وثبة قلب محموز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ويد أمى بيدى اليسرى ، وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدى بها . لن يطول غيابى . سأقتحم البحر ، وأشق النجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربونا للزواج من حبيبتى « أنيسه » هذه . وقبلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

كان يتخلل حديثنا فترات ينقطع فيها الحديث لإشغال لفافة أو مسح جبين للاستذكار ، أو مشاهدة دارعة كقلعة تترنح ، أو غواصة تطفو وتغوص ، أو أسراب من طائرات تهبط وترتفع واحدة منها للاستكشاف

قال محدثى : عمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبة مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه « أنيسة » الصبوح ، وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعانى دفعاً إلى الأرض الجديدة التى سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد

بدت منابت الأمل فى نفسى تمتد سوقها ، وتبرز براعمها ، وتورق وتزهر . وأخذ خيال السعادة يحوطنى بشملة من فرح تزين وجه المستقبل نضراً بساما ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل . ثم صمت هنيهة وقال :

لقّنني مواطني فى البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات ملأت أكياسى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سورى ، أطوف بها شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتى . كنت أحس الشفقة بى والضحك من رطانتى واغتفار جرأتى وفضولى كان تقبل البرازيليين إياى على هذا النحو يحزنى كبريائى فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت فى القرى النائية أسعى على أقدامى ، وكلما نقصت بضاعتى كنت أرسل فى طلب سواها من عميلى الذى استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى مواطنه ! ؟

لله در الأمريكانى يا صديق من عطوف شفوق ! ولكنه طلعة مغامر مراهن تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لا عن كرم ولا بدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة

(البقية فى العدد القادم)

حبيب الزحلاوى

إعلان

تعلن وزارة الشؤون الاجتماعية عن توريد الأغذية اللازمة للمجأ العجزة بشبين الكوم لمدة أربعة عشر شهراً ابتداء من أول مارس سنة ١٩٤٥ وقد حددت آخر موعد لتقديم العطاءات ظهر يوم الثلاثاء ٦ فبراير سنة ١٩٤٥ بديوان مديرية المنوفية.

وترسل العطاءات برسم حضرة صاحب العزة مدير المنوفية داخل مظروف يكتب على كل منها نوع المناقصة وتاريخ فتح المظاريف وتطلب الشروط من ديوان المديرية على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما نظير مبلغ ٢٥٠ مليما مع مراعاة تقديم تأمين مؤقت قدره ٢٪ من قيمة العطاءات داخل المظروف على أن تقدم العطاءات على نفس الشروط المعدة لذلك . ٢١١٩